الصيدلية الأفلاطونيَّة و تجلياتها في"المواكب"الجبرانيَّة

أ. سليمة عقوني

جامعة باتنة

الملخَص:

عالج أفلاطون في فلسفته الروح، وسعى إلى إيجاد السبيل الذي يضمن لها الخلاص من جميع آلامها، و حتى يصل إلى غايته فقد وضع العديد من المحاورات المبنية على مجموعة من الأسئلة،و إجابات لهذه الأسئلة، و هو في هذا يشبه الصيدلية التي تبحث عن علاج لأمراض الروح،و ما يترتَّب عن تلك الأمراض إذا لم يتم علاجها.

كان جبران خليل جبران متأثِّرا بتلك الأفكار الفلسفية؛ نتيجة اتصاله بالعالم الغربي،و الفكر الفلسفي اليوناني،فعبَّر عن ذلك في العديد من أعماله،و من بين تلك الأعمال قصيدته "المواكب"التي سعى فيها للبحث عن علاج للروح، و تخليصها من قيود الجسد.

لقد تشابه جبران مع أفلاطون في الهدف، لهذا فقد كانت هذه الدراسة التي تعتمد على المنهج المقارن؛من خلال استخراج نقاط الالتقاء ما بين أفلاطون،و جبران خليل جبران في سعيهما لبناء الروح،و إيجاد علاجها الشافي.

Résumé

Platon, dans sa philosophie soigné l'esprit .pour cela à cherché a trouver un moyen qui assure son salut de tous ses douleurs. Pour cette fin, il a mis de nombreuses tentatives basé sur un ensemble de questions et les réponses à ces questions.

Ces conversations pharmacie que vous êtes la recherche d'un remède pour les maladies de l'âme sont semblables. Et les conséquences pour ces maladies si non traitée.

Gibran Khalil Gibran sécuriser ces idées philosophique ; par conséquent, il concerne le monde occidental, et la philosophique grecque.

Grace à tout cela dans plusieurs de ses œuvres. Et entre ces actes poème « Al Mawaquebe» qui a cherché à traiter l'esprit.

Il est dans cette quête semblable à Platon. Ce fut l'étude qui reposent sur l'approche comparative en extrayant rencontre Platon et Gibran dans leur quête pour construire un des points d'esprit, et de trouver un traitement bénéfique.

تمهيد:

لقد كانت فلسفة أفلاطون موجَّهة منذ القديم إلى بناء النَفس، و المجتمع،و ذلك من خلال العديد من المحاورات التي تحمل طابعا روحيَا يسعى إلى بناء الداخل و ربطه بالخارج مثل:فايدروس،المأدبة.

هذا البناء الذي سعى إليه أفلاطون مثَّل من أساسيات الفارماكون الأفلاطوني الذي يبحث في القسم العلاجي،و الطرق الكفيلة لضمان الصحة النفسية.

ومن أنجع الطُّرق التي اعتمدها أفلاطون هو أن يكون الدواء معتمدا على ما هو روحي؛لأن جلسات العلاج الروحية هي التي تقوِّي النفس.

تضمَّن الفارماكون الأفلاطوني على مفعولين اثنين مكوَّن من ثنائيَة متقابلة معروفة في الميتافيزيقا مثل: الخير≠الشر الحضور≠الغياب؛" فهو يدلُّ في آن معا أو طورا فطورا على الدواء والسُّم،الأذى،و المعالجة".(1)

هذه الثنائية تحتلُّ مرتبة كبيرة في "المواكب" الجبرانية التي كانت مجسَّدة للصيدلية الأفلاطونية من خلال بحثها في القسم العلاجي (Classe Thérapeutique) الذي يضمن مضادات حيوية (Antibiotique) لجميع الأمراض المؤثِّرة على سلامة الفرد، و المجتمع. إذن : ما هي ملامح الصيدليَة الأفلاطونية ؟ وكيف جسَّدها جبران في مواكبه ؟ وهل استطاع كلاهما أن يحقِّق العلاج الشَافي؟

لقد وضع كل من أفلاطون،و جبران العديد من الخطوات لتحقيق الصحة النفسية،وتتمثل هذه الخطوات في الأسس الآتية:

أولا: النفس و التذكُّر:

1-النفس في الفارماكون الأفلاطوني:

تحدث أفلاطون عن النفس،و عن الخير و الشر في محاوراته الأولى،فرأى أن النفس أهم من الجسد،و حتى تظل هذه النَفوس ترتقي فعليها أن تكون خيِّرة؛"فالنفس هي التي تكتمل بممارسة هذه الفضائل،و تستطيع أن تنجو بعد الموت".(2)

لقد وضع أفلاطون السبيل إلى خلود الروح من خلال تخلُّصها من شرورها؛ففي" منيون" نجده قد خطا في حديثه عن الفضيلة خطوة هائلة،حيث رأى أن النفس تحتوي على معارف كامنة فيها،و أنها قد وُجدت قبل حضورها في الجسد،و قد كانت تشاهد الحقائق الوجودية،و لهذا فإن علمنا يصبح ما هو إلا مفعول تذكُّر،وفي هذا التذكُّر نسعى إلى صعود عالم المثل.

2- التذكر في فلسفة أفلاطون و جبران:

أسهب أفلاطون في الحديث عن نظرية التذكُّر،و جعلها من البراهين الدالة على خلود الروح،و بيَّن ذلك من خلال رؤيتنا للأشياء المحسوسة التي تظهر لنا صورها عن طريق تحصُّلنا عليها بالعلم في حياة سابقة،و ما نقوم به نحن سوى أن نتذكرها،و بهذا تكون النفس قد وجِدت من قبل في مكانٍ ما تأمَّلت فيه الصُّور،و حين تهبط إلى الأرض تتذكَّرها بمناسبة المحسوسات.

لقد عبر جبران عن هذا في قائلا:

ليس في الغابات علم   لا و لا فيها الجهول
فإذا الأغصان مالت   لم تقل هذا الجليـــل(3)

فهو ينفي"العلم"، و"الجهل" في حياة الغاب،و هو بهذا يجعل الناس سواسية؛لأن الفرق بينهم يكون من خلال قدرة كل واحد منهم على التذكُّر للمعارف السابقة.

ثانيا:البحث عن الذات من خلال"الغاب"

مجَّد جبران في مواكبه الغاب قائلا:

هل اتَّخذت الغاب مثلي   منزلا دون القصورْ (4)

فهو يدعو الناس للعودة إلى الفطرة التي هي أوَّل أسس المجتمع،و حتى يحقِّق لهم ذلك فعليهم اللُّجوء إلى الغاب أين تزول الفوارق.

ففي الغاب لا وجود للدين،و هذا ما عبَّر عنه قائلا:

ليس في الغابات دين   لا و لا الكفر القبيحْ(5)

لقد ثار جبران في العديد من أعماله على قيود الكنيسة التي تجعل البشر مقسَّمين إلى طوائف، و هذه القيود لم يرض عنها،فراح يمقتها في العديد من أعماله؛فرأى أن" الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرنا إلى الشعائر الفاسدة،فلم تعد قادرة على إدراك معاني النواميس العلوية الأولية الخالدة".(6)

فدين جبران كان معتمِدا على الحرية؛لأنه آمن به بقلبه، فلم يكن فيه مقيَّدا بقيود تمنعه من الوصول إلى العالم العلوي الأمثل.

كما لا يوجد في عالم الغاب جزاء، و لا عقاب، لهذا فقد نادى قائلا:

ليس في الغابات عدل   لا و لا فيها العقاب(7)

فالعقاب،و الجزاء مؤوَّل حسب ميول البشر،ولا خير فيمن تحكمه ميوله، و قد صرَّح بهذا جبران قائلا:"و قد علمت لأوَّل مرَّة أن الإنسان و إن ولِد حرا يظلُّ عبدا لقساوة الشرائع التي سنَّها آباؤه، وأجداده،و أن القضاء الذي نتوهَّمه بشرا علويا هو استسلام اليوم لمآسي الغد،و خضوع إلى ميول الغد".(8)

فالإنسان محكوم بثنائية الماضي و الحاضر، و كل منهما تعمل على التأثير فيه إما بالقوة،وإما بالضُّعف،لهذا لا يجب الأخد بشرائع هؤلاء الناس؛ فمن يرونه مجرما قد يكون بريئا،و من يكون بريئا قد يكون مجرما، و في"مضجع العروس"،و"وردة الهاني"(9)خير مثال على ذلك.

رأى جبران في" المواكب" أن مجتمع الغاب لا مجال فيه للقوة،و الضعف فقال:

ليس في الغابات عزم   لا ولا فيها الضعيفْ(10)

فهذا المجتمع فيه مثال المحبة الصادقة؛"فالمحبة التي تولد في أحضان اللانهاية ،و تهبط مع أسرار اللَّيل،فلا تقنع بغير الأبدية، ولا تستكفي بغير الخلود، ولا تقف متهدِّية أمام شيء سوى الألوهية".(11)

فلا مجال للصراع في هذا المجتمع؛لأن المحبَة تسوده،و هي لا فرق عندها بين القوي و الضعيف؛ ولأن هذا المجتمع متآلف ،فلا نستطيع الفصل بين روحه،لهذا فقد قال:

لم أجد في الغاب فرقا   بين نفس و جسدْ(12)

و هو يقصد من هذا أن المتطلبات الروحية لهذا المجتمع تتَّفق مع متطلَّباته الجسدية؛"فالغاب إذا لا يعرف المتناقضات،و فيه يدرك المرء السكينة،هدأة النيرفانا الروحية".(13)

فكل الناس يكونون سواسية؛لأنهم يعيشون بالفطرة التي فضَّلها جبران،و كان أفلاطون قد قال بها من قبل،فرأى أن هذه هي النواة السليمة التي يتكوَّن من خلالها المجتمع تكوينا سليما؛"فهم مثال البراءة السعيدة ليس لها من حاجات إلا الضرورية،و هي قليلة ترضيها بلا عناء".(14)

هذه المواصفات الموجودة في الغاب تضمن الصحة النفسية (Santé Montale)، لهذا فقد ألحَّ كل من جبران، و أفلاطون عليها لكي نتوصَّل إلى الصفاء الروحي، و التوازن النفسي.

ثالثا:الابتعاد عن التراجيديا:

عمد أفلاطون في فلسفته إلى إبعاد التراجيديا؛لأنها تسعى إلى خلق أشخاص ضعاف،و رأى أن يكون الشارع مراقبا جيِّدا لأهل المدينة، فيمنع عنهم ما يثير فيهم مشاعر الحزن،و الأسى التي تعمل على إفشال عزيمتهم ؛ "فالتراجيديون لا يرمون لغير إحراز إعجاب الجمهور،و الجمهور لا يميل إلى الأشخاص الحكماء الرزينين ، بل يطلب أشخاص متقلّبين تملأ تقلُّباتهم، و شهواتهم القصة، فيلهون بها، و تميل معها إلى كل جانب".(15)

مشاعر الحزن في التراجيديا- عند أفلاطون- مفتعلة،لِهذا فهي تقوم على التَظليل الذي دعا جبران للابتعاد عنه في مواكبه من خلال الاستماع إلى صوت الناي الذي يبعث في النفس الكمال الروحي(La perfection spirituelle).

ناشد جبران الفرح من خلال صوت الناي الذي راح يكرِّره في أكثر من مرَّة قائلا:"أعطني الناي وغني".

و هذا التكرار يعد عنصرا بارزا في إبداعه؛"فهو يدخل في نسجه لحمة،و سدى،و يشدُّ أطرافه بعضها إلى بعض،و يعطي شكله نوعا من الحركة،يدور فيها الكلام على نفسه،و يتكرَّر دون أن يعيد معناه".(16)

فتكرار عبارة"أعطني الناي و غني" تعمل على استحضار بطاقات انفعالية لدى المرسل،فتؤدي وظيفة تعبيرية إيحائية(Fonction Suggestive Graphique).

وهذه العبارات ظاهرة نفسية مرتبطة بعملية اللاشعور عند المرسل؛لأنها تقوم بإخراج النص من حالة الوعي إلى حالة اللاوعي،فتعمل على تحويله إلى مجموعة من الانفعالات المكتوبة التي يندفع لها المتلقي،لهذا فإنَ النص الذي يحتوي على عناصر متكرِّرة هو نسيج ما بين الشعور واللاشعور.

فالشعور يظل الإطار الزمني بين عناصر هذه العبارة المتكررة"أعطني الناي و غني"،أما اللاشعور فهو يتمثّل في العناصر المكرَّرة في حد ذاتها،و هذا ما يوضّحه الجدول الأتي:

الناي		الغناء
يرعى العقول	استجابة	أبقى من مجيد و ذليل
يمحو المحن	استجابة	يبقى بعد أن يفنى الزمن.
خير الشراب	استجابة	يبقى بعد أن تفنى الهضاب.
خير الصلاة	استجابة	يبقى بعد أن تفنى الحياة.
عدل القلوب	استجابة	يبقى بعد أن تفنى الذنوب.
عزم النفوس	استجابة	يبقى بعد أن تفنى النفوس.
خير العلوم	استجابة	يبقى بعد أن تطفا النجوم.
مجد أثيل	استجابة	أبقى من زنيم و جليل.
لطف الوديع	استجابة	أبقى من ضعيف و ضليع.
ظرف الظريف	استجابة	أبقى من رقيق و كثيف.
حب صحيح	استجابة	أبقى من جميل و مليح.
خير الجنون	استجابة	أبقى من خفيف و رضيب.
جسم و روح	استجابة	أبقى من عبوق و صبوح.
جسم يسيل	استجابة	أبقى من مسوخ و نعول.
سر الخلود	استجابة	يبقى بعد أن يفنى الوجود.

النتيجة:

فهو يطلب البقاء،لهذا فقد كرَّر الفعل"يبقى"،و"أبقى" أكثر من مرة،و هذا البقاء ينشده صوت الناي الذي يرمز إلى الكمال في الدين،و العدل،و صفاء النفس،و لا يكون هذا إلا من خلال" النسيان" الذي يعدُّ أحسن وصفة علاجية قدَّمها جبران في مواكبه.

فضَّل أفلاطون الشعر الغنائي؛لأنه أقل ضررا بالأخلاق،فهو يشيد أمجاد الآلهة،و البطولات،أما شعر المآسي، و الملهاة فهو أسوء نماذج الشعر؛لأن كلاهما يمسُّ بالأخلاق.

دعا جبران إلى هذا قائلا:

أعطني الناي و غني فالغناء خير الصلاة

و أنين الناي يبقى بعد أن تفنى الحياة(17)

فهو يريد أن يجعل الشعر مصدر التفاؤل،و أن تكون وظيفته إخراج الحقيقة،و ليس التظليل،و الوهم.

و بهذا تكون الموسيقى قد احتلت جزءا كبيرا في العلاج النفسي الذي طلبه جبران في مواكبه؛ "فالكمال الحقيقي كائن في موسيقى الناي ؛ لأن هذه الموسيقى يصحُّ أن تقول فيها أنها جسم و روح مها، وأنها تحتوي على كل المظاهر الإيجابية من

أعطني الناي و غني	و إنس ما قلت و قلنا.
أعطني الناي و غني	و إنس داءا و دواء.

صلاة،وعدل،و عزيمة،و علم،و محبة".(18).

و نظرا لأهمية الموسيقى عند جبران فقد خصَّص لها من قبل كتابا سمَّاه "الموسيقى"، و يعدُّ هذا الكتاب أول ما كتبه جبران، و فيه يوضِّح كيف أنَّ للإيقاع دور في تنقية الروح،و دفعها نحو التفاؤل.

رابعا:فلسفة الحب:

لم يتوقَّف العلاج الأفلاطوني في فارماكونه على هذه الوصفات،بل نجده قد وضع دواءا أخر يكون به صفاء النفوس،و هذا الدواء يتمثَّل إلى عاطفة الحب الصادق؛لأنَّها تضمن للنفس انسجاما (harmonie) يصل بها إلى المثال الأعلى.

لقد كانت نظرة أفلاطون للحب تحمل اتجاها فلسفيا مثاليا؛ فقد تحدَّث عن هذه العاطفة في محاورتي"المأدبة"، و"فايدروس"، فوضع أصوله، و بيَّن أهميته على النفس البشرية.

وحتى يوضِّح أفلاطون نظرته الفلسفية للحب فقد اعتمد في الكثير من الأحيان على الأسطورة،فقال بأنَّ الرجل و المرأة كانا في بداية الخليقة موجودا واحدا يشتمل على أربعة أرجل، كما كان له وجهان متشابهان تمَّ تركيبهما في رقبة مستديرة، وفي مقابل هذا نجد رأسا واحدا يدور في جميع الاتجاهات، وله أربعة آذان،و هذه المخلوقات تحاول أن ترتق في السماء لتصل إلى"زيوس" (Zéyoos) كبير الآلهة، فيعمل على تقسيمها شطرين، لهذا فإنَّ كل شطر يأخذ في البحث عن شطره الثاني، و عندما يلتقي به يعانقه بقوة كأنَّما يريدا أن يعودا كائنا واحدا.

فهذه الرغبة الموجودة في النفس تدفع بها للبحث عن نصفها الذي يكمِّلها،فتندفع إليه بشوق، حتى تضمن خلودها؛"لأن الشوق إلى المحبوب الجميل لا يكون لذاته،بل لشيء أعمق من ذلك، وأخلد".(19)

قسَّم أفلاطون في" المأدبة" الحب إلى نوعين:أرضي،و سماوي،و قد نشأت عن هذا الأخير"أفروديت" (Aphroditt)السَّماوية، أما الحب الأرضي فقد نشأت عنه أفروديت ابنة الإله زيوس، لهذا فإنَّ الحب أصبح يتحرَّك ما بين ما هو أرضي و ما هو شريف، و هذا الأخير"الشريف" يتحرَّك نحو المحبوب حتى يبلغ الكمال، و حتى يتمَّ صلاح النفوس بالحب فلا لابدَّ لها أن تعتبر أنه قوة تربوية عظيمة،و ليس تحقيقا للذة.

لقد اتبع جبران في" المواكب" نفس المنهج الأفلاطوني في الحب،فقال:

و الحب في الناس أشكال و أكثرها　　كالعشب في الحقل لا زهر ولا ثمر
و أكثر الحب مثل الراح و أيسره　　يرضى و أكثره للمدمن الخطر
كأنه مـــلك في الأســـر معتقـــل　　يأبى الحياة و أعوان له غدروا(20)

فهو يطلب الإنعتاق (émancipation) من قيود الجسد،و الزمان،و المكان،و هذا لا يكون إلا من خلال فصل الحب عن الأغراض المادية؛لأنه "نوع من الشوق،إنه يتَّجه نحو موضوع الجمال الذي يظل دون امتلاك".(21)

المقصود من هذا أنَّ الحب هو جهد للحصول على الجمال الموجود في المحبوب،و هذا الجمال مرتبط بما هو روحي،و ليس ما هو مادي؛لأنَّ البحث عن المادة في الحب من شأنه أن يفسده، و بهذا يكون فساد النفس.

سعى جبران في" المواكب" إلى إبعاد الحب عن الملذات الجسدية،فكان متَّفقا مع أفلاطون الذي حارب مثل هذه الأفكار الخاطئة؛لأنَّها تهوي بالمحب إلى استعباد الجسد؛"فقد كان الحب"إيروس" (éros) إلها جبارا كإله الخمر"ديونيسوس"، (Dionysos) و قد عبد الأثينيون كِلا الإلهين،و أسرفوا في الحب،و الشراب،و كانوا يتَّخذون الشراب مطيَّة إلى الاستمتاع بمباهج الحب،و هو حب حسِّي جنسي".(22)

و بهذا تكون الصيدلية الأفلاطونية قد وضعت حالات استعمال الحب،و موانع استعماله، و هذا يكون مرتبط بغاية المحب ،و نظرته للمحبوب.

طلب جبران الحب الصحيح الذي لا مجال فيه للإدَّعاء،و هو قائم على الصداقة التي أسهب أفلاطون الحديث عنها؛فرأى أنَّ المجتمع تربطه رابطة خلقية،و روحية؛فالمحبوب يمثِّل أصل كل علاقة ما بين الناس،و هو ينطوي على الخير،و أسمى القيم.

منح جبران المحب صفة القدسية،فقال:

فإذا لقـــيت محـــبًّا هائما كــــلفا　　في جوعه شبـــــع في ورده الصَّــــدر

و الناس قالوا هو المجنون ماذا عسى   يبغي من الحب أو يرجو فيصطبر؟

أفي هوى تلك يستدمي محاجره   و ليس في تلك ما يحلو و يعتــــــبر

قل هم البهْم ماتوا قبل ما ولدوا   أنا دروا كنه ما يحيي و ما اختبروا(23)

يسعى جبران في هذا المقطع إلى السُّمو بالمحب،و جعله مميَّزا عن بقية الناس؛فهو في قوله"ماتوا قبل ما ولِدوا" إشارة منه إلى الخلود؛أي خلود المحب؛لأنه استطاع أن يندمج مع شطره الثاني ليعود إلى الحياة السماوية.

خامسا:التقمص والإتحاد بالذات الإلهية:

1-فكرة التقمص:

أسهب كل من أفلاطون،و جبران الحديث عن التقمص، (la réincarnation)و خلود الروح، و وضعا في سبيل ذلك العديد من الأدلة.

أما عن أفلاطون فقد آمن بفكرة التقمص، و تناسخ الأرواح، فقال في"فيدون": " و يتكرر الناس في الدنيا، ويتكوَّنون واحدا بعد واحد حتى يمتلأ المكيالان ؛ مكيال الخير و مكيال الشر، فإذا امتلأ مكيال الخير صار العمل كله طاعة، و يصير المطيع خيرا خالصا، فينتقل إلى الجنة،و لم يلبث طرفة عين، وإذا امتلأ مكيال الشر صار العمل كله معصية،و العاصي شرا محضا، فينتقل إلى النار،و لم يلبث طرفة عين ".(24)

نفهم من خلال هذا أنَ التكرار يسير وفق مبدأ عادل،و هذا ما أشار إليه جبران قائلا:

أعطني الناي وغني   فالغنا عدل القلوبْ

وأنين الناي يبقى   بعد أن تفنى الذنوبْ(25)

فهو يطلب العدل الروحي الذي تحقّقه الإرادة الإلهية؛"فالله سوَّى ما بين الأجزاء المقدَّرات، فلم يستحق واحد منهم تفضيلا عن غيره،و لكن إنَّ منزلة الاستحقاق أشرف المنازل،فخيَّرهم بالمحنة".(26)

لقد امتحن الإله الناس بالطاعات حتى يمنحهم مراتبهم فمن أبى هذا الامتحان بقي في عالم الابتداء، أما من اختار أن يمتحن فقد أنزله إلى الدنيا، فمنهم من عصاه،و منهم من أطاعه، و تظلُّ هذه الروح تتقمَّص حتى تصل إلى المثال الأعلى، (exemple idéal) و هذا ما عبَّر عنه جبران قائلا:

أعطني الناي و غني   فالغنا يمحو المحنْ

و أنين الناي يبقى   بعد أن يفنى الزمنْ(27)

فهو يسعى للتخلص من مِحنه حتى تكون له منزلة الاستحقاق التي تحدَّث عنها أفلاطون.

لقد أسهب أفلاطون الحديث عن العالم المثالي الذي يظلُّ الإنسان يتقمَّص حتى يصل إليه،فرأى" أنَّ الديار و العالم عنده خمس؛ داران للثواب:أحدهما مادية فيها جنات، و عيون، وأنهار، والثانية روحانية غير جسمانية:روح وريحان، والثالثة دار العقاب المحض، وهي نار جهنَّم ليس فيها درجات بل هي متساوية، و الرابعة دار الابتداء فيها خلق الله الكائنات قبل أن تهبط هذه الدنيا".(28)

أما الدار الخامسة-حسب أفلاطون-هي الدار الدنيا"دار الابتداء" و هي التي نزل البشر منها قبل ارتكابهم المعصية.

كما أكّد في" فايدروس"على فكرة التَقمص، فقال:"إنَّ من يستمرُّ في تحريك ذاته دائما لابدَّ أن يكون خالدا، في حين أنَّ من يحرَّك غيره فإنَّما يتحرَّك بغيره،و توقُّف حركته هو توقُّف لحياته،أما من يحرَّك نفسه فهو يهمل نفسه،و هو مبدأ أو مصدر الحركة في كل متحرَّك".(29)

فالمبدأ لا يمكن أن يكون حادثا؛لأنه لا يصدر عن شيء سابق عليه،لهذا فهو لا يتعرض للفساد، وكل من يحرَّك نفسه بنفسه فهو مبدأ الحركة،و من المستحيل أن يوجد،و إلا ستكون النتيجة بأن تتوقَف السماء و الكون.

2-الإتحاد بالذات الإلهية:

تحدَّث جبران عن الهوية الإلهية بالنسبه للإنسان و الكون،و تبدو هذه الهوية من خلال وجهة نظره بعيدة كل البعد عن التعيين الشخصي للذات الإلوهية؛"فالله ليس كائنا شخصا فردا مستقلا في ذاته عن الكون بل إنه و الكون الظاهر و الخفي واحد في الجوهر".(30)

وهذا ما نستنتجه حول دلائل وجود الإله؛إذ يتَّبع طريقة الاستقراء المظهري،فيدعو إلى رؤية جديدة في الوجود الإلهي من خلال جميع مظاهر الطبيعة،فيقول:

هل فرشت العشب ليلا و تلحَّفت الفضا
زاهد في ما سيأتي ناسيا ما قد مضى؟(31)

هذه النظرة الاستقرائية هي إحدى بواعث اعتقاده بالوحدة، فعندما يكون الله حاضرا في كل شيء تكون وحدة الكائنات ؛"لأنَّ التجزُّؤ المادي في الوجود يحدث تجزُّؤا في الله الحال في هذا الوجود".(32)

هناك أسباب عديدة دفعت جبران إلى القول بفكرة الإتحاد بالذات الألوهية منها تمرُّده على رجال الدين،و كذلك عقدته الأوديبية التي نتجت عن نفوره من والده،و اتصاله بأمِّه،و هذه العقدة ولَّدت بداخله رغبة في إبطال الإله المتسلِّط الذي يقول به رجال الدين،و دمجه للإله في باطنه،و الإتحاد به.

لقد دعت الشخصية النارسيسية الجبرانية إلى أن يدمج الإله بنفسه و بالآخرين، فيجعل منهم إلها يتكامل،فيتحوَّل إلى مطلق يوازي المطلق الإلهي،فتكون بهذا الشراكة ما بين البشر،و هذا ما عبَّر عنه قائلا:

ليس في الغابات عزم لا و لا فيها الضعيفْ
فإذا ما الأسد صاحت لم تقل هذا المخيفْ
إنَّ عزم الناس ظِلٌّ في فضا الفكر يطوفْ
و حقوق الناس تبلى مثل أوراق الخريفْ(33)

فهو مؤمن بهذه المساواة التي تكون فيها حقوق الناس متعادلة،و هذا ما يحقِّق التكامل،و الاتصال بذات الإله.

اعتبر جبران أن تبعثر الأشياء في العالم،و تباعدها بالمسافات مظاهر خداعة لوحدة ضمنية تُنظِّم التعدُّد، و التباعد جاعلة منها واحدة في الجوهر،فقال:

وغاية الروح طيُّ الروح قد خفيت فلا المظاهر تبديها و لا الصُّور(34)

و هذا التَّعدد مظهر من مظاهر الخداع الحسي،و لكن الحقيقة تدركها الروح التي تميل إلى الكمال.

مثلما ثار جبران على المكان فقد ثار على الزمان،فرأى أنه واحد رغم التقطُّعات التوقيعية، و هذا يعني وحدة الله بالكون؛لأنَّ الله يجمع الأزل والأبد، فينفي كل تجزُّؤ و تقطيع زماني؛فقد قال في هذا المجال:

كلنا أنفاق خلد و خيوط عنكبـــوتْ
فالذي يحيا بعجز فهو في بطءٍ يموتْ(35)

فكل الكائنات تسير نحو الخلود، و هذا ما تدفعه إليه الرغبة في ذلك، فمن لًم تكن له هذه الرغبة فنهايته التلاشي و الاضمحلال.

هذه الوحدة تنظِّم العالم لا في مزيج خالٍ من القياس و إنما من خلال نظام تصاعدي يشبه التصاعد الهرمي الذي ينطلق من القاعدة و يسمو نحو القمة ،لهذا فقد كان جبران يرى دائما بأنَّ الجمال هو مظهر لجوهر الأشياء، و أنَّ التمرُّد هو الذي يجسِّد الحق، والحرية هي التي تجسِّد إنتصار قيم الفكر،فتبدو هذه العناصر مظاهر لجوهر واحد.

فالكون يسير وفق جوهره الحقيقي نحو الكمال و الألوهية؛ "إنه مشدود إلى مصيره بفعل الاندفاع الحي نحو الكمال المبثوث فيه روحا إلهيًّا،فجوهرا أصلا".(36)

و هذه الفكرة بوحدة الوجود تضع حلا لمشكلة فلسفية تبحث عن علاقة المادة بالروح،أو النفس بالجسد،فهوية الكون واحدة لا ازدواج فيها؛" لا مثالية تنفصل فيها عن الواقعية،لا جوهرا مفصولا عن وجوده ،و وجود منعزل عن جوهره".(37)
و بهذا تكون الوحدة الجوهرية بين الروح و المادة،أو بين النفس و الجسد نظرة توحيدية،و هذه الوحدة تجعل الإنسان يتقمَّص في حياته أدوارا،و مراحل عديدة؛"فهو يسير نحو الكمال عندما يشعر بأنَّه هو و الفضاء واحدا لا حدَّ له".(38)

لقد عبَّر جبران عن هذا في مواكبه قائلا:

ليس في الغابات موت لا و لا فيها القبورْ
فإذا نيسان ولّـــــى لم تمت معه الشرورْ
إنَّ هول الموت وهم ينثني طـــي الصدورْ(39)

فالموت يكون مرحلة لبداية جديدة يتقمَّصها(40) الإنسان حتى يصل إلى الكمال الروحي،و هذا ما عبَّر عنه جبران في أحد مؤلفاته مخاطبا إلهه قائلا:"يا إلهي الحكيم،العليم،يا كمالي،و مجدي، أنا أمسك، و أنت غدي،و أنا عروق لك في ظلمات الأرض،و أنت أزاهر لي في أنوار السموات،و نحن ننمو معا أمام وجه الشمس".(41)
هذا يعني أنَّ روح الإله موجودة في الإنسان، و حتى يندمج معها لابدَّ له من أن يتخلَّص من جميع الشرور العالقة بنفسه حتى يستطيع الوصول إلى الذات الألوهية التي هي مصدر الخير كله.
لقد أشار جبران إلى طبيعة هذا الاتصال فرأى أنه لا يعني حدوث اندماج تام،و دائم لا انفصال فيه؛فالإنسان يظلُّ لفترة محدودة خارج هذه الوحدة،و هي فترة المراحل التقمصية السبع التي يجب عليه أن يتكامل خلالها ليرتق إلى الكمال المنشود الذي يبحث فيه عن أناه؛"فالعلَّة في الكتلة الأزلية،و ليست في الأنا المعنوي".(42)

سادسا: جدلية الخير و الشر:

في سبيل الوصول إلى الأزلية لابدَّ من مواجهة العديد من الصعاب من أهمها الصراع ما بين الخير و الشر الذي شغل أفلاطون،فطرحه في مؤلفاته الفلسفية، ثم اهتم به جبران فحوَّل بحثه فيه إلى أناشيد تتغنَّى بعظمة الإنسان، فتفكُّه من قيود الماضي و الحاضر.
تحدَّث أفلاطون عن الخير و الشر في محاوراته الأولى،فرأى أنَّ النفس أهم من الجسد؛ "فهي تتكمَّل بممارسة هذه الفضائل،و تستطيع أن تنجو بعد الموت".(43)
لقد وضَّح أفلاطون السبيل لخلود الروح من خلال تخلُّصها من الشرور؛ففي"منيون" نجده قد خطا في حديثه عن الفضيلة خطوة هائلة،حيث رأى أن النفس تحتوي على معارف كامنة فيها، وأنها قد وجِدت قبل حضورها في الجسد،و قد كانت تشاهد الحقائق الوجودية، لهذا يصبح علمنا ما هو إلا مفعول تذكُّر، وهي في تذكُّرها تسعى إلى صعود عالم المثل.
شبَّه أفلاطون النفس- في محاورة فايدروس- بعجلة مجنَّحة يقودها العقل"مصدر الخير،و يحرِّكها جوادان؛الأول مطيع يمثِّل القسم الحماسي في النفس، أما الثاني فهو جموح و يمثِّل أهواءها السفلى، وهذه النفس تبقى سائرة في موكب الآلهة،فتشاهد الحقيقة المطلقة، إلا أنَّ الجواد الجموح "الأهواء" تكون سببا في عجز العجلة، فلا تستطيع اللّحاق بالآلهة،لهذا فهي تسقط في جسم إنسان. كما شبَّه الشرور بإله البحر جلوكوس (Glucose) الذي حطَّمت الأمواج جزءا من جسمه و شوَّهتها، كما أضيفت له أجزاء أخرى نمت من العشب و الصخور و القواقع حتى غدا أقرب إلى الحيوان الممسوخ منه إلى ذاته الحقيقية، و هذا هو حال النفس البشرية –حسب أفلاطون–لأنَّ الشرور قد سيطرت عليها،لهذا وجب التخلُّص من كل تلك الشرور التي تحول دون الوصول إلى الحقائق المطلقة.
عبَّر أفلاطون عن هذا قائلا:"لذلك وجب علينا إخراج النفس من البحر الذي تغوص فيه حتى الآن، و أن ندفعها إلى الحماسة،و ننفض عنها القشور التي تراكمت عليها،و كوَّنت حولها طبقة سميكة من الطين و الحجارة" .(44)

ألحَّ جبران على الفضيلة،و رأى أن يكون الإنسان متحمَّسا في طلبها،فسعى إلى تكرار الناي بما يحمله من نغم يبعث في النفس الحماسة.

و لولا الإلحاح في طلب الخير لسيطر الشر على النفس،فكان الموت نهايتها،و هذا ما عبَّر قائلا:

فالسجن و الموت للجانين إن صغروا و المجد و الفخر و الإثراء إن كبروا(45)

فهو يقصد من هذا أنَّ الخير و الشر موجود في النفس البشرية،فإذا انتصر الخير منِحت صفة الخلود،أما إذا كان الشر سبيلها فنهايتها الموت؛ "فهناك خير، و شر، أما العنصر الذي يفسد، و يدمَّر فهو الشر، و ذلك الذي يحفظ ، و يقوم هو الخير. كما أنَّ كل شيء خير، و شر كالرمد بالنسبة للعين، و المرض بالنسبة للجسم عامة، و التسوُّس للقمح ، و التآكل للخشب، و الصدأ للحديد، و النحاس".(46)

هذه الجدلية (Dialectique) بين الخير و الشر من أساسيات الفارماكون الأفلاطوني،و في سبيل الحصول على علاج لابد من الوصول على المعرفة التي من خلالها يكون الوصول إلى الحقيقة.

فإذا تمكَّنا من معرفة الخير،و الشر نستطيع أن نصل إلى الفضيلة التي يكون بها العلاج الموضعي لتعب الروح؛"فعن طريق التربية تستطيع الموجودات البشرية أن تصل إلى معرفة ذواتها الحقيقية ، و أن تعرف الخير، و أن تسلك طبقا له".(47)

هذه التربية تتطلَّب ضرورة وجود حكماء يوجَّهون الناس،و يرشدونهم حتى لا يقعوا في التظليل؛"فالخير ضرب من العلم،أو المعرفة التي تحوَّلت بطريقة ما إلى رموز في بنية الكون ذاته،فهناك حقائق أخلاقية طبيعية،و ما أن تعرف هذه الحقائق حتى يكون من المستحيل على أي إنسان أن يسلك سلوكا شريرا".(48)

المقصود من هذا أنَّ الفطرة الإنسانية تطلب الخير،و هي في قيامها بالشر تكون من خلال جهلها له.

طلب جبران هذه الفطرة في"المواكب"فقال

ليس في الغابات علم لا و لا فيها الجهولْ

فإذا الأغصان مالت لم تقل هذا الجليلْ

إنَّ علم الناس طرًّا كضباب في الحقولْ

فإذا الشمس أطأت من ورا الأفق يزولْ(49)

سابعا:البحث عن الجمال:

لم يتوقَّف العلاج الأفلاطوني في فارماكونه على هذا الحد بل نجده في مواقف كثيرة يدعو إلى اعتماد الجمال كدواء لعلاج النفوس،لهذا فقد ألحَّ على طلب الحكمة التي تختصُّ بالعقل و تمنحه صفة العدل،كما دعا إلى العفة التي تحول بين شهوات النفس.

وتتوسَّط هذين الطرفين الشجاعة التي تقوم بمقاومة إغراءات اللذة خوف الوقوع في الألم؛"فالحكمة أولى الفضائل،و مبدؤها؛فلولاها لجرت الشهوانية على خليقتها، و انقادت لها العصبية، و لو لم تكن العفة و الشجاعة شرطين للحكمة تمهِّدان لهما السبيل، و تتشرَّفان بخدمتها لما جرتا من دائرة المنفعة إلى دائرة الفضيلة".(50)

نفهم من هذا أنَّ علاج النفوس يكون بهذه الفضائل، و مع أنَّ الحكمة أسماها فهذا لا يعني أنها لا تحتاج إلى بقية العناصر لتؤدي وظيفتها؛ "فهي النقد الجيد الوحيد الذي يجب أن يستبدل بسائر الأشياء".(51)

لقد دعا جبران هو الأخر إلى الانتصار على الذات من أجل خلق قيم جمالية تصل بالإنسان إلى النيرفانا التي تجعله ينفلت من قيود الألم، ليعيش في صفاء روحي مجرَّد من المادة،و هذا ما عبَّر عنه قائلا:

أعطني الناي و غنِّي فالغنا عزم النفوسْ

و أنين الناي يبقى بعد أن تفنى الشموسْ(52)

عمد كل من جبران،و أفلاطون إلى تقوية النفس من خلال حثّها على التحلّي بالفضيلة التي تبعث في النفس الجمال؛و هذا الالتقاء في طلب الجمال ما بين أفلاطون،و جبران نستطيع أن نختصره في المخطَط الأتي:

الحكمة(العقل)التذكر عند جبران
الشجاعة(مقاومة إغراءات اللَذة)
العفة≠شهوات النفس(المعرفة عند جبران)

النتيجة:

الـــتذكَر	الزَهـــــد	العفة
بالإرادة	بالإرادة	بالإرادة
العقل	النفس	العقل و النفس

العلاج يكون بالإرادة من خلال الوصول إلى الجمال.

ثامنا:تحقيق العدالة الاجتماعية:

لم يقتصر العلاج في الصيدلية الأفلاطونية على الفرد،بل نجده قد إتَّجه إلى المجتمع الذي لابدَّ له أن يغيَّر العديد من المبادئ الخاطئة؛إذ أنَّ صلاح النفوس لا يكون بمفرده فلابد أن يتبعه صلاح للآخرين.

يكون هذا الصلاح من خلال العدالة التي ينشأ عنها أفراد سويين؛فصلاح الفرد يكون بصلاح معاملاته،و فساده يكون بفساد معاملاته.

عبَّر أفلاطون على أهمية العدالة فقال على لسان سقراط:"أنا لا أنكر أن يكون منتهى العار أن أصفع ظلما،و أن تقطَّع أعضائي، و أن أسلب مالي،و أدَّعي أنَّ العار يلحق المعتدي، وأنَّ الظلم أقبح، و أخسر لصاحبه منه لضحيَته".(53)

المقصود من هذا أنَّ الشرير لا يسيء في شرَّه لمن ظلمه،و إنما لنفسه التي يفقدها جمالها بعدما فقدت عدالتها.

أراد جبران في"المواكب" أن يُعدَّل في موازين مجتمعه،فلم يجدها لهذا فقد راح يطلبها في حياة الغاب قائلا:

ليس في الغابات عدل لا ولا فيها العقابْ(54)

فالعدل لابد أن يخضع للإرادة الإلهية التي تنظِّم سلم القيم،لهذا فقد طلب جبران حياة الغاب التي تحكمها الفطرة.

هذه أهم مقومات الصيدلية الأفلاطونية، والتي قد نحا جبران نحوها من أجل إيجاد دواء فِعلي (des médicaments efficaces) لجميع الأمراض الروحية.لكن السؤال المطروح في هذا المجال هو:هل وصل أفلاطون فعلا لهذا الدواء في فلسفته؟و هل حقَّقت المواكب الجبرانية هذه الغاية؟

لقد أعلن أفلاطون عن عجزه في تحقيق غايته ،و تطبيق أفكاره على جميع الأفراد؛"فلا غرابة أن تكون مدينة أفلاطون سواء في الجمهورية،أم في القوانين إلهية سماوية تحقَّق العدالة،و لكن لا على هذه الأرض، و أن يكون موطن الفلاسفة،و المكان الذي يستطيع فيه أمثال سقراط أ ن يعيشوا فيه دون حاجة إلى الهروب بالموت، والانعزال بالزُّهد، و الاعتكاف بالتَّأمل".(55)

فهو يعلن عجزه عن تحقيق هذه الغاية وسط مجتمعه، كما أعلن جبران هو الأخر هذا العجز فقال:

العيش في الغاب و الأيام لو نظمت في قبضتي لغدت في الغاب تنتـــثر

لكن هو الدَّهر في نفسي له إرب فكلَّما رُمْـــــتُ غابا قام يعتـــذر

و للتقادير سبل لا تغيَّرها و الناس في عجزهم عن قصدهم قصروا (56)

لقد أعلن كل من أفلاطون،و جبران عن فشلهما في تحقيق غايتهما؛لأنهما كانا يبحثان عن دواء شافي لجميع الأفراد،و ليس لفرد واحد،كما كانا يريدان الوصول إلى دواء فعلي للمرض،و ليس تهدئة موضعيَة للألم(calmant topique du douleur).

لكن مع ذلك نستطيع أن نصل إلى بعض النصائح العلاجية التي ألحَّ عليها كل من أفلاطون، و جبران من أجل الوصول إلى العلاج الروحي.

الهوامش:

1)-جاك ديريدا،ت:كاظم جهاد،صيدلية أفلاطون،تونس،دار الجنوب،ص9.

2)- جيمس فنيكان يسوعي،أفلاطون سيرته و مذهبه،بيروت،دار الشرق،ص56.

3)- ت:نازك سابا يارد، المواكب،بيروت،مؤسسة نوفل،ط1985،2،ص28 .

4)- ص37 .

5)- المصدر نفسه،ص26.

6)- الأجنحة المتكسرة،دار المعرفة،ص73.

7)- المواكب،ص 26.

8)- الأجنحة المتكسرة،ص84.

9)- لقد كان جبران دائما يدافع عن المرأة،و هذا ما نجده في "وردة الهاني"،و"مضجع العروس" ؛إذ يقف في الأولى إلى صف امرأة تخلَّت عن زوجها الغني لتفضِّل العيش مع شاب فقير تحبه،و في الثانية يمجِّد امرأة تتطعن نفسها، و حبيبها حتى لا تتزوج بمن لا تحب؛و هذا الدفاع عن المرأة عند جبران ناتج عن عقدته الأوديبية.

10)- ص 29.

11)- جبران خليل جبران،الأجنحة المتكسرة،ص81.

12)- المواكب،ص12.

13)- المصدر نفسه،ص11.

14)- مصطفى غالب،أفلاطون،بيروت،منشورات مكتبة الهلال،1982،ص57.

15)- يوسف كرم،تاريخ الفلسفة اليونانية،القاهرة،مطبعة لجنة التَأليف و الترجمةو النشر، ط1953،3 ،ص102.

16)- منير عياش،مقالات في الأسلوبية،إتحاد كتاب العرب،1990،ص88.

17)- المواكب،ص 24.

18)- إحسان عباس،محمد نجم،الشعر العربي في المهجر،بيروت،دار صادر،1975،ص8.

19)- أحمد فؤاد الأهواني،أفلاطون،القاهرة،دار المعارف،ص58.

20)- ص32.

21)- ديف روبنسون،جودي جروفر،ت:إمام عبد الفتاح،أقدِّم لك أفلاطون،المجلس العلمي للثقافة،2001،ص139.

22)- أحمد فؤاد الأهواني،مرجع سابق ذكره،ص55.

23)- المواكب،ص33.

24)- ت:علي سامي النشار،مصر،دار المعارف،ط1964،3،ص210.

25)- المواكب،ص39.

26)- فيدون،ص210.

27)-المواكب،ص 38.

28)-فيدون،ص210.

29)- ت:أميرة حلمي مطر،مصر،دار المعارف،ط1،ص69.

30)- غسان خالد،جبران فيلسوف،بيروت،مؤسسة نوفل،ط1983،2،ص221.

31)- المواكب،ص39.

32)- غسان خالد،مرجع سابق،ص221.

33)-المواكب،ص37.

34)- المصدر نفسه،ص35 .

35)-المصدر نفسه،ص40

36)- جبران خالد،مرجع سابق،ص225.

37)-المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

38)- جبران خليل جبران،البدائع و الطرائف،بيروت،المكتبة الثقافية،ص49.

39)- المواكب،ص36.

40)- لقد آمن جبران بالتَّقمص، فكان يرى أنَّ" بيليك " قد تجسَّد فيه منذ ولادته ، فأصبح هو نفسه في طاقاته ،و أيَّدته في هذه الفكرة " ماري هاسكل" التي رأت أنَّ " بيليك " قد توفي سنة1827، ثم ولد في السنة نفسها "روزيني " الإيطالي ، الذي توفي سنة1883، و هي السنة التي ولد فيها جبران، و بين الثلاثة تشابه كبير من خلال الجمع ما بين الأدب ، والرسم، وهذا ما دفعه إلى الاعتقاد بأنَّ روح "بيليك" قد ظلَّت تتقمص أدوارا إلى أن وصلت إلى جبران، فكانت تتشابه معها في مكوناتها الروحية.

41)- مناجاة الأرواح،بيروت،المكتبة الثقافية،ص49.

42)- رياض حسن،رسائل جبران التائهة،بيروت،مؤسسة نوفل،ص106.

43)- جيمس فنيكان يسوعي،مرجع سابق،ص56.

44)-ت:فؤاد زكريا، الجمهورية الفاضلة،القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،1974،ص475.

45)- المواكب،ص26.

46)- الجمهورية الفاضلة،ص471.

47)- ديف روبنسون،جودي جروفر،مرجع سابق،ص29.

48)- صابر عبد الدايم،أدب المهجر،مصر،دار المعرفة،1993،ص481.

49)- ص29.

50)- فيدون،ص96.

51)- مصطفى غالب، مرجع سابق،ص70.

52)- المواكب، ص37.

53)- ت:محمد حسن ظاظا ، جورجياس ، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر،1970،ص8.

54)- المواكب، ص27.

55)- أحمد فؤاد الأهواني، مرجع سابق، ص114.

56)- المواكب، ص40.

قائمة المصادر و المراجع:

أ-المصادر:

1)-أفلاطون، ت:علي سامي النشار ،مصر،دار المعارف،ط1964،3.

2)- أفلاطون، ت:محمد حسن ظاظا،جورجياس،الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر،1970ص8.

3)- أفلاطون،ت:أميرة حلمي مطر،فايدروس،مصر،دار المعارف،ط1.

4)-جبران خليل جبران، ت:نازك سابا يارد، المواكب،بيروت،مؤسسة نوفل،ط1985،2 .

5)- جبران خليل جبران،الأجنحة المتكسرة،دار المعرفة.

6)- جبران خليل جبران،البدائع و الطرائف،بيروت،المكتبة الثقافية.

7)- مناجاة الأرواح،بيروت،المكتبة الثقافية.

المراجع:

8)-إحسان عباس،محمد نجم،الشعر العربي في المهجر،بيروت،دار صادر،1975.

9)- أحمد فؤاد الأهواني،أفلاطون،القاهرة،دار المعارف.

10)-جاك ديريدا،ت:كاظم جهاد،صيدلية أفلاطون،تونس،دار الجنوب.

11)- جيمس فنيكان يسوعي،أفلاطون سيرته و مذهبه،بيروت،دار الشرق.

12)- ديف روبنسون،جودي جروفر،ت:إمام عبد الفتاح،أقدَم لك أفلاطون،المجلس العلمي للثقافة،2001.

13)- رياض حسن،رسائل جبران التائهة،بيروت،مؤسسة نوفل.

14)- صابر عبد الدايم،أدب المهجر،مصر،دار المعرفة،1993.

15)- غسان خالد،جبران فيلسوف،بيروت،مؤسسة نوفل،ط1983،2.

16)- مصطفى غالب،أفلاطون،بيروت،منشورات و مكتبة الهلال،1982.

17)- منير عياش،مقالات في الأسلوبية،إتحاد كتاب العرب،1990.

18)- يوسف كرم،تاريخ الفلسفة اليونانية،القاهرة،مطبعة لجنة التّأليف و الترجمة والنشر، ط1953،3.